كتب وشخصيات

للأستاذ سيد قطب

١ — على هامش السيرة ... ... لطه حسين
٢ — إبراهيم الثاني ... ... للمازني
٣ — زهرة العمر ... ... لتوفيق الحكيم
٤ — الصديقة بنت الصديق ... للعقاد (*)

مدرسة طه حسين وفنه

للدكتور طه حسين مدرسة — على بعض من المعاني — له فيها تلاميذ كثيرون ، كلهم يحاول أن يتأثره ويتشبث بخصائصه وينسج فيها على منواله ، ولكن واحداً منهم لم يحقق هذه الخصائص على الوجه المطلوب . ومن بين هؤلاء التلاميذ من يبذل جهداً مضنياً يثير الإشفاق في أن يصبح نسخة أخرى من طه حسين ، فتكون قصاراه أن يخرج نسخة « مشلفطة » كالصورة التي تنطبع على ورق « النشاف » !

وأوضح مثال لهذه المحاولة الأستاذ شوقي ضيف ، وبخاصة في كتابه « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » الذي نال به الدكتوراه أخيراً من كلية الآداب ، ونال عليه فوق الدكتوراه شكر الجامعة أيضاً !

ونستطيع أن نطلق على مدرسة الدكتور طه حسين اسم « مدرسة الأسلوب التصويري » ؛ فالدكتور في خير حالاته يرسم لوحات متتابعة ، أدواته فيها الكلمات والجمل . لوحات للمناظر ، وللحوادث ، وللمعاني ، وللخطرات النفسية ، والالتفاتات الذهنية ، على السواء . وتلك مزيته الكبرى كصاحب شخصية أدبية

والدكتور طه صاحب موهبة في هذا وصاحب طريقة ، فأما تلاميذ مدرسته فقد أخطأتهم الموهبة واتبعوا الطريقة . أخطأتهم موهبة التصوير واتبعوا طريقة التعبير . ولهذا يجوز أن نعود فنستدرك شيئاً ، وهو أن مدرسة الدكتور طه حسين ، هي الدكتور طه حسين نفسه ؛ ثم محاولات لم تبلغ بعد حد النضوج ، ولم يوجد فيها صاحب الطبيعة الموهوبة هذه الهبة الخاصة ؛ بل لم يوجد فيها من يدرك سرها الأول وهو طبيعة التصوير ، لأنهم جميعاً يفهمون أن هذا السر كامن في طريقة التعبير !

بقي أن نعرف شيئاً عن نوع هذا التصوير في مدرسة طه حسين ، أو بتعبير أصح في طبيعته . فهو التصوير الحسي الذي يرد المعاني والخواطر صورا حسية ، أو كالحسية — بله المناظر والحوادث — فهذه يعيدها كما بدأت أول مرة توشك أن تكون مجسمة .

وهو يخلع على هذه الصور الحسية لوناً من ألوان الحياة والحركة ؛ ولكنها الحياة اللطيفة والحركة الوئيدة التي تدب على هينة ، وتخطر في رفق . فالسرعة النابضة والحيوية الدافقة ليستا من مطالب هذه الصور في يوم من الأيام .

وقد يكون المثال هنا أوضح من المقال :

« هذه شهرزاد قاعة منه[1] غير بعيد ، تنظر إليه بنظرات فيها الحنان والمكر ؛ وهي مغرقة في ضحك هادىء عذب يرتفع له صدرها وينخفض ، ويغشى وجهها بغشاء من الجمال الرائع ليس إلى تصويره من سبيل . وهذا الملك ينظر إليها مسحوراً مبهوراً وهي تضحك من ذهوله وحيرته ، ولكنه ينهض خفيفاً ويمشي سريعاً ، إذا بلغها أو كاد جثا أمامها غاضاً بصره إلى الأرض ، رافعاً يديه إلى السماء ، كأنه المؤمن الذي يتقرب إلى التمثال ؛ وهي تضع يدها على رأسه ضاحكة ، كأنها تبارك عليه ، ولكنها لا تلبث أن تستحيل إلى حنان خالص ، وإذا هي تميل إليه مترفقة ، فتضع على جبهته قبلة حلوة حارة طويلة . ولو أنها تحدثت في تلك اللحظة لأحس شهريار في صوتها تهدج العبرات التي تريد أن تندفع من العيون ، ولكنها الإرادة القوية تمسكها فيظهر أثر هذا الصراع في الصوت المحتبس والألفاظ التي لا تبين . ولكنها لم تقل شيئاً ، وإنما استقام قدها المعتدل ، وامتدت يدها الرخصة إلى الملك فأنهضته صامتة ، واستجاب لها الملك صامتاً طيعاً ، فمضت به خطوات إلى نشز من الأرض قريب يكسوه

(*) لهذا الترتيب سبب خاص بي مع هؤلاء الأعلام ، فأنا لم أكتب من قبل عن الاثنين الأولين إلا إشارات عارضة ؛ فمن حقهما على اليوم أن أبدأ بهما وقد كتبت عن « سليمان الحكيم » لتوفيق الحكيم ، ولكني لم أتناول طريقته العامة . أما العقاد — وبخاصة في سلسلة العبقريات — فقد قلت عنه معظم ما أريد أن أقول

(١) يعني الملك « شهريار » في أحلام « شهرزاد »

العشب ، فأجلسته وجلست بجانبه ، وأحاطت عنقه بيدها ؛ ثم أمالته فى رفق حتى وضعت رأسه على كتفها ، وظلت تنظر إليه وهو ينظر إليها ، وهما مغرقان فى صمت عميق . ثم يسمعها شهريار تتحدث إليه فى صوت هادىء وادع ، وهى تقول له : « ألم يأن لنا بعد أن نهبط من السماء ، وأن ننزل إلى الأرض فنعيش فيها مع الناس ؟ »

« ولكن شهريار لا يجيبها ، وإنما تنحدر من عينيه دمعتان هادئتان تمسحهما شهرزاد فى رفق ، ثم تنعطف إلى الملك فتقبل جبهته مرة أخرى ؛ ثم تقيمه حتى إذا استوى فى مجلسه جعلت تمر أصابعها فى شعره رفيقة به باسمة له مطيلة النظر إليه صامتة مع ذلك لا تقول شيئاً . وكأن هـذا العطف الصامت الحار قد بعث الحياة والنشاط فى قلب الملك وجسمه ، وفى عقل الملك وإرادته ، فهو يرفع رأسه إلى شهرزاد ويسألها فى صوت كأنه يأتى من بعيد : ألا تنبئينى آخر الأمر من أنت وماذا تريدين ؟ »

ولقد أطلنا فى هذا المثال لأنه يجمع بسهولة كل ألوان التصوير الحسى فى طبيعة الدكتور : فيه المعانى الذهنية والخواطر النفسية ، وفيه الحركات والحوادث والمناظر وكلها مرتسمة مصورة متحركة هذه الحركة اللطيفة المتتابعة فى يسر وتؤدة

فمن شاء أن يرجع إلى أمثلة خاصة لكل نوع فليرجع إلى كتب ، الأيام ، وأديب ، وأحلام شهرزاد ، وهدية الكروان ، والحب الضائع . ثم ليرجع إلى هامش السيرة . كتابنا اليوم الذى جرنا إلى هذا الكلام ! واقرأ فى الصفحة الأولى من الجزء الثالث :

« كان الشيخ مهيباً رهيباً ، وكان فخماً ضخماً ، قد ارتفعت قامته فى السماء ، وامتد جسمه فى الفضاء ؛ وكان وجهه جهماً عريضاً ، تضطرب فيه عينان غائرتان بعض الشيء ، ولكنهما على ذلك فى حركة متصلة لا تكادان تستقران ؛ وهما متوقدتان دائماً ينبعث منهما شيء كأنه الضوء المشرق على هذا الوجه الجهم الغليظ ، فإذا لحظتا شيئاً أو أطلنا النظر إليه فكأنما تقذفانه بالشرر ، أو تسلطان عليه شواظاً دقيقاً قوياً من النار . وكان الشيخ فوق هذا كله ذكياً حاد الذكاء نافذ البصيرة ، يتعمق ما يعرض له من الأمر دون أن يحس الناس منه تعمقاً لشيء . يسأله الناس فيجيبهم لساعته جواب من فكر وقدر وأطال التفكير والتقدير ، فيعجبون منه ويُعجبون به . وكان بعد هذا كله بطيء المشى ، ثقيل الحركة ، وقوراً فى كل ما يصدر عنه ، وكان صوته يلائم هذا كله من أمره ، فكان صوتاً ضخماً عميقاً ، يسمعه السامع فيخيل إليه أنه يخرج من غار بعيد القاع . وكان الناس يهابونه ويرهبونه كما كانوا يجلونه ويكبرونه . فإذا سألتهم عن مصدر ذلك لم يعرفوا كيف يجيبون ، إنما كان هذا الرجل يبهرهم ويسحرهم ويملأ نفوسهم إكباراً وإعظاماً ، فإذا ذكر الوليد بن المغيرة فقد ذكر سيد من أروع سادات قريش ورجل عظيم من رجالات البطحاء » ... الخ

هذه اللوحات المرسومة فى بحبوحة ، وهذه الصور التى تخطر فى وناء وتدب فى رفق ، هى مزية الدكتور الأصيلة ، مزيته التى يتجلى فيها فنه ويؤدى بها رسالته . ولقد يخطئك فى بعض ما يكتب أن تجد الفكرة الكبيرة أو المعنى المبتكر ؛ ولكنك لن تخطئ اللوحة الهادئة والصورة الحية ، هذا اللون من الحياة المريحة المستريحة . نعم قد تبطؤ الحركة فى بعض الأحيان إلى حد الخمود فيدركك نوع من الاستبطاء تهم أن تغمز فيه الكاتب ليسرع فى خطواته بعض الشيء ؛ ولكن ذلك قليل على كل حال

ومن هنا كان إعجاب الدكتور بلبيد ثم زهير خاصة من شعراء الجاهلية لأنه يلبى حاجته من هذا التصوير .

* * *

وبعد فما قيمة كتاب على « هامش السيرة » ؟

قيمته من الوجهة الذاتية أنه — وبخاصة الجزء الأخير — يجمع أفضل خصائص الدكتور طه وأحسن مزاياه ، وينجو من كل عيوبه التى توجد فى بعض الكتب الأخرى

وقيمته من الوجهة الموضوعية أنه الكتاب الأول فى اللغة العربية[1] الذى يجعل من بعض حقائق السيرة وبعض أساطيرها فناً حياً جذاباً ؛ ولكنه لا يقف عند هذا الحد بل يحيل هذا الفن الحى الجذاب ، صورة « علمية » صادقة للجزيرة العربية وأطرافها فى الفترة بين قبيل مولد النبى (صلى الله عليه وسلم)

(١) للأستاذ توفيق الحكيم فى هذا المعنى كتاب « محمد » ظهر بعد ظهور الجزء الأول من الهامش ونحا فيه نحوه الخاص وله قيمته الفنية الكبرى